السرد الاغترابي في رواية : رجال في الشمس،لغسان الكنفاني.
دراسة فنية نقدية

خديجة بوطيب عبدالقادر بوطيب.
جامعة: الزنتان - كلية التربية درج - أستاذ مساعد.
دكتوراه - جامعة عين شمس، 2018.
رقم الهاتف :0917295875

الملخص

تسرد الرواية (1) قصة نكبة خروج الفلسطينيين من موطنهم الأصلي سنة 1948م (2)،وتحوّل تهجيرهم إلى موتيفيات تحمل في طياتها جدلية التاريخ الفلسطينيّ،وجاءتْ بوصفها رصداً لظواهر اجتماعية وسياسية، وارتبطتْ بالحكايات والنقل الشفوي،وجسد غسان معاناة النفي وفقد الهوية وآثار واقعة التهجير،وشخصّ ذاكرة الأمكنة والشخصيات.

Abstract:

F the exodus of the Palestinians From their original homeland in the year 1948 AD ,and their displacement turned into deaths It carries with it the dialectic of Palestinian history ,and came as an observation of phenomena social and political ,and was linked to stories and oral transmission ,and Ghassan,s body embodied the suttering of exile, the loss of identity ,and the effects of the displacement incident, And someone whe remembers places and places and

استلام الورقة: 2026-02-16 - قبول الورقة: 2026-02-24 - نشر الورقة: 2026-03-02

الكلمات المفتاحية : مخيمات اللاجئيين،الخزان، الكويت.

أهمية البحث :.

وتحاول . الدراسة .،استبطان ظاهرة الاغتراب،وجاءت بوصفها نتاجاً للوعي الجمعي الفلسطينيّ.ومثّل الاغتراب بذرة في أدب الرحلة والمغامرات،وصوّرتحوّل الفرد من علاقات راسخة إلى أنموذج من النزاعات المختلفة : صراع بين تيمات قديمة وأخرى جديدة.وجاء الاغتراب باعتباره أحد مكونات الواقع الاجتماعي والنفسي والاقتصادي للمجتمع،خاصة حيثما يكون الفرد بعيداً عن وطنه.وكذلك جاء بوصفه إشكالية لايخلومنها ايّ عمل فني،حيث تعبرعن واقع الإنسان وفلسفته وإحساسه بالتمزق والضياع.

هدف الدراسة :.

تهدف . الدراسة .،إلى تسليط الضوء على محنة الفلسطيني إثر تعرضه للتهجير سنة 1948م،وتحاول الوقوف على تداعيات التهجير القريب منها والبعيد.وتطرح مفهوم الاغتراب من خلال معطيات فكرية وأدبية لسرد غسان الكنفاني لها.كما رصدت مواطن المعاناة وخلدت صوراً للهوية والانتماء.

سؤال البحث:.

كيف تشكل الاغتراب لدى اللاجئ الفلسطيني؟

وما التغييرات الاجتماعية والتاريجية حسب سرد غسان الكنفاني لها؟

أهم الدراسات السابقة:.

أما عن الدراسات السابقة،فكانتْ أهمها على النحو التالي :.

1. مختار ملاس: تجربة الزمن في الرواية العربية،رجال في الشمس نموذجاً،جزائر،دار فوفم للنشر،2007م.

2 .عبد الرحمن ياغي: مع غسان كنفانيّ، الكويت،مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، 1983م.

منهج البحث :.

فاعتمدت هذه . الدراسة . عن المنهج الوصفي النقدي،رصدتْ ظواهرالاغتراب ونقدتْ مخيمات التهجير وحضوركينونة الفلسطينيّ.كما نرى كيف تمثلت رؤية الاغتراب عند غسان بانتقاله من التنظير الثوري إلى الواقع الملموس،ورصدتْ تغير بنيّة المجتمع وتوجهاته كلياً.وصورّتْ اللغة التصويرية حلم العودة،ومعاناة الاستبعاد عبر رحلة الزمن.

خطة البحث:.

اقتضت طبيعة البحث أنْ يُبنى على مبحثين:.

المبحث الأول:السرد الاغترابي،وتمّ رصد الظاهرة الاغترابية عبر السرد.

المبحث الثاني:الأسلوب واللغة، ويهدف إلى رصد مضمون الأسلوب وتوظيف اللغة واقعيا وجمالياً.

المبحث الأول: السرد الاغترابي

تسرد .الرواية . ،أحداث حقبة تاريخية،تصوّررحلة ثلاثة رجال من مخيم فلسطينيّ إلى الكويت من أجل لقمة العيش،وجاء الانتقال بواسطة سيارة، حيث تناولها غسان،وكأنّها وسيلة لتغيرالاتجاه وأداة للتغريب كما جاء التوظيف موازياً للوعي الاغترابيّ،ولهذا عمل غسان على تحويل السرد من حالة الاستلاب إلى الإيجابية والتجاوز(3).

وبهذا الاستهلال صيغت واقعات مابعد التهجير،وحددتْ علاقة الفرد فيما بعد حرب التحرير والاستيطان ورسمت عدم التآلف بين المكان الجديد والمهاجر الفلسطيني،وتمثل عبرجدلية: قرى فلسطينية وصحراء التيه، التي تمثلتْ بأنّها زمن للموت والعجز والقهر،إنّها صحراء النفط التي لاتعطي خيرها إلا للأعداء(4). كما شكل الاغتراب أمام المظاهرالطبيعة وقواها المختلفة،هوية سردية،أنتجتْ أحداثاً،جاءت بوصفها مؤسسة لتاريخ وهوية جماعية(5).

ورسم المفتتح واقع الاغتراب،وكأنّنا أمام صورة حيّة،مستمدة من مخيمات القرى الفلسطينية،فشخصّ ابتداء بـ "أبي قيس"، كشخصية محورية،عايشت تغريبة 1948م،وسردتْ ذاكرة البعد المكاني والصلة الإنسانية (6)، ونرى هنا كيف تداخل المكان والإنسان،الماضي والحاضر،وظهرالتداخل في تصويرأثرندى المطر،ودوره في إيقاظ مشاعر،وبناء علائق،لذا،جاءت صورة احتضان أبي قيس للأرض،وهي ترسم علاقة التوحد والذوبان في قلب واحد يخفق في جسدين (7)على هذا النحو:

"أراح أبوقيس صدره فوق التراب النديّ،فبدأت الأرض تخفق من تحته: ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتّجة ثم تعبر إلى خلاياه...في كل مرة يرمي بصدره فوق التراب يحس ذلك الوجيب كأنّما قلب الأرض مازال،منذ أنْ استلقى هناك أول مرة،يشق طريقاً قاسياً إلى النورقادماً من أعمق أعماق الجحيم حين قال ذلك مرة لجاره الذي يشاطره الحقل،هناك،في الأرض التي تركها منذ عشرسنوات "ص11.

واتخذتْ العودة إلى الماضي شكل التكرار،صوّرمعاناة الفراق،ونداءالأرض،وصوت المطر،واستغاثة الإنسان،وتطورالعلاقة بالأرض وتحويلها إلى حلم العودة،" **الأرض الندية . فكّر.هي لاشك بقايا من مطر أمس..كلا، أمس لم تمطر! لايمكن أنْ تمطر السماء الآن إلاّ قيضاً وغباراً! أنسيت أين أنت؟ أنسيت؟" ص 11 ومايليها.**

وامتزجت مشاعر أبي قيس بعاطفتين متوازيتين،فجاءت إحداهما بوصفها بلورة لبُنى اللاوعي،ترتقي بالأمكنة من الواقعية إلى سحر الفانتازيا،بينما جاءتْ الأخرى بوصفها رمزاً للمرأة والفردوس المفقود، وتوجتْ المرأة إلى تموز الخصب والنماء(8)،" **وهذا صوت قلبك أنت تسمعه حين تلصق صدرك بالأرض"،أيّ هراء خبيث! والرائحة إذن؟ تلك التي إذا تنشقها ماجتْ في جبينه ثم انهالت مهوّمة في عروقه؟ كلما تنفس رائحة الأرض وهومستلق فوقها خيّل إليه أنّه يتنسم شعرزوجته امرأة حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهولم يزل رطيباً.. الخفقان ذاته"ص 11.**

وتشكل وعي الاغتراب والتجرد في السرد من خلال العقل الجمعي،وقف عن رؤية وسلوك فلسطينيّ، حيث مثلتْ صورة: أستاذ القرية (سليم) الذاكرة الشعبية،بينما تبرز شخصية (أبي قيس)، لتجسد انكسارالحلم والفجيعة، فنرى كيف تحوّل من متقاعد منفي إلى متسلل فاقد للهوية،"**لكنك على كل حال بقيتُ هناك .... وفرت على نفسك الذل والمسكنة و أنقذتُ شيخوختك من العار.. يارحمة الله عليك ياأستاذ سليم.. ترى لو عشت، لوأغرقك الفقر كما أغرقني.. أكنت تفعل ما أفعل الآن؟ أكنت تقبل أنْ تحمل سنيك كلها على كتفيك وتهرب عبرالصحراء إلى الكويت كي تجد لقمة خبز؟" ص 15.**

وأعطى سرد نهر شط العرب (9)،تداعيات وطاقة تأثيرية،واكتسب النهردلالة الاتساع والرخاء ، والتغييرمن خلال رؤية طفل،التي جاءتْ محاطة بدهشة الاكتشاف (10)،كما جسّد النهر وسيلة اتصال وانفصال (11)،وهذا ما وصفه أبوقيس على هذا النحو: " نهض،واستند إلى الأرض بكوعيه وعاد ينظر إلى النهر الكبير كأنّه لم يره قبل ذلك.إذن هذا هو شط العرب:" **نهر كبير تسير فيه البواخرمحملة بالتمروالقش كأنّه شارع في وسط البلد تسيرفيه السيارات.." هكذا صاح ابنه،قيس ،بسرعة حين سأله تلك الليلة: ."ماهو شط العرب؟" ص15.**

وتؤرخ تجربة النهرروح المغامرة وفراق الأهل.ويتصارع المشهد بين الضياع والتيه والأمل،وتستدعي الأشجار موتيقة الحلم الضائع،.كما فجرت شجرة الزيتون مكامن الاغتراب،وصوّرتْ حالة الانبعاث عبر تعاقب الأحداث،وأوحتْ برمزية الخلود،" **وراء هذا الشط،وراءه فقط،توجد كل الأشياء التي حرمها. هناك توجد الكويت ..الشيء الذي لم يعش في ذهنه إلا مثل الحلم والتصوريوجد هناك..لابد أنّها شيء موجود، من حجروتراب وماء وسماء،وليست مثلما تهوم في رأسه المكدود..**

لابد أن ثمة أزقة وشوارع ورجالاً ونساء وصغاراً يركضون بين الأشجار..لا..لاتوجد أشجار هناك..سعد صديقه الذي هاجر إلى هناك واشتغل سواقاً وعاد بأكياس من النقود قال لاتوجد هناك أية شجرة.. الأشجار موجودة في رأسك يا أبا قيس في رأسك العجوزالتعب يا أبا قيس... تساقط زيتوناً وخيراً كل ربيع..ليس ثمة أشجار في الكويت .."ص 18.

وتطرح رؤية أبي قيس لنهرشط العرب،جدلية تغريب الأمكنة والشخصيات،كما ذُكرالنهر كأثروثائقي في هذه الرحلة،وتمثل بوصفه أيقونة حلم،ودللّ على العبور،كما دلل عن الرؤية القبلية والبعدية للمكان،" **صوت الشط يهدر، والبحارة يتصايحون،والسماء تتوهج والطائر الأسود مازال يحوّم على غير هدى.قام ونفض التراب عن ملابسه ووقف يحدق إلى النهر..أحس،أكثر من أيّ وقت مضى،بأنّه غريب وصغير،مروركفه فوق ذقنه الخشنة ونفض عن رأسه كل الأفكار التي تجمعت كجيوش زاحمة من النمل....بقيت مقعياً حتى جاءك سعد وأخذ يهزك مثلما يهز الحليب ليصير زبداً.**

. إذا وصلت إلي الشط بوسعك أنْ تصل إلى الكويت بسهولة،البصرة مليئة بالأدلاء الذين يتولون تهريبك إلى هناك عبرالصحراء.."ص 19،18،17.

وصوّرأبو قيس واقعه بعد مضي عشر سنوات من بعد رحيله عن القرية،وجاء الإلحاح في استعادة عشر سنوات بوصفها تناصاً تذكارياً،كما اختزلتْ تداعيات النفي:الاجتماعي والمادي والنفسي،" **في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى أنْ تنتظر..لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجر اتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها..**

في هذه السنوات الطويلة شق الناس طريقهم و أنت مقع ككلب عجوز في بيت حقير..ماذا تراك كنت تنتظر؟ أنْ تثقف الثروة سقف بيتك.. بيتك؟ إنه ليس بيتك..رجل كريم قال لك : أسكن هنا! هذا كل شيء وبعد عام قال لك أعطني نصف الغرفة،فرفعتُ أكياساً مرقعة من الخيش بينك وبين الجيران الجدد.."ص 18.

ورصد المشهد التالي ملامح حيّة لشخصيات من أجيال متعددة،توارثت قصة البؤس،واستحضرت الوعي بوصفه نكبة للتهجير والضياع،وتتجلى هنا شخصية أبي قيس،فنقرأ صوتها وسكولوجيتها ودورها في السرد "**اقتاد مروان زميله أسعد إلى موعد مع أبي الخيزران،وصلا متأخرين قليلاً فوجدا أبا الخيزران بانتظارهما، جالساً مع أبي قيس فوق مقعد إسمنت كبير على رصيف الشارع الموازي للشط.**

.لقد اجتمعتْ العصابة كلها الآن ....صاح أبو الخيزران ضاحكاً، وهو يضرب كتف مروان بكفه ويمدّ الأخرى ليصافح أسعد.

.هذا هو صديقك إذن... ما اسمه؟

أجاب مروان باقتضاب: .أسعد.

دعني إذن أعرفكما على صديقي العجوز.."أبوقيس.." وبهذا تكون العصابة قد اكتملت..لابأس أنْ تزداد واحداً..ولكنها الآن كافية أيضاً.

قال :أسعد: .يبدو أنّك فلسطينيّ..أأنت الذي سيتولى تهريبنا؟

.نعم،أنا.

.كيف؟

.هذا شأنيّ أنا..

ضحك أسعد بسخرية ثم قال ببطء شاداً على كلماته بعنف:.لا ياسيدي..إنّه شأننا نحن..يجب أنْ تحكي لنا كل التفاصيل،لانريد متاعب منذ البدء.

... قال أسعد بعنف:.إذن دعونا نختصر الوقت.. يبدولي أنّ العم أبوقيس غير خبير بالأمر،أما مروان فإنّها تجربته الأولى..أنا عتيق في هذه الصنعة،ما رأيكم أنْ أتفاوض عنكم؟

رفع أبوقيس رأسه كفه في الهواء مو افقاً،وهز مروان رأسه،فالتفت أسعد

إلى أبي الخيزران.. .لقد رأيت: الشباب سلموني الأمر،فدعني أقول لك شيئاً:إننا من بلد واحد.نحن نريد أنْ نرتزق و أنت تريد أن ترتزق،لابأس،ولكن يجب أنْ يكون الأمر في منتهى العدل.." ص48 ومايليه.

وتختزل حكاية أبي الخيزران دراما الذكرى والتاريخ،ورصدتْ ماطرأ على جسده من تشويه،ونلمس صدى الشعوربالذل،والتمزق الداخلي وآلام المبرحة الخفية (12)، ذلك بعدما فقد رجولته أثناء حرب تحرير فلسطين،فأصبحتْ المعارك كأنّها مأساة من ماضي لايحب تذكره(13)،كما ترمزالشخصية إلى وواقع العجز الفلسطينيّ الذي يقود إلى الموت المخيف والمرعب، "... قال أسعد بهدوء:.قل لي يا أبا خيزران ..ألم تتزوج أبداً؟

.أنا؟

سأل بعجب ... لماذا تسأل؟

... لا لشيء معين..كنت أقول لنفسي أن حياتك رائعة..لاأحد يشدك من هنا ولا أحد يشدك من هناك...

هز أبو الخيزران رأسه...ولم يستطع أنْ يتذكر،وهو مقيد هناك على ذلك الشكل المحكم ...مرت عشر سنوات على ذلك المشهد الكريه...مرت عشر سنوات على اليوم الذي اقتلعوا فيه رجولته منه،ولقد عاش هذا الذل يوماً على اليوم وساعة أثر ساعة ...عشر سنوات طوال وهو يحاول أنْ يقبل الأمورولكن أية أمور؟ أنْ يعترف ببساطة بأنّه قد ضيّع رجولته في سبيل الوطن؟ وما النفع؟ لقد ضاعتْ رجولته وضاع الوطن " ص60 ومايليها.

لم يأتِ ذكرصحراء مطلاع الحدودية الكويتية،وسفوان العراقية (14)،لتوثيق واقعة التغريب فقط،بل لبلورة أماكن في اللاوعي.كما جاء خزان عبور المتسللين،بوصفه تمثيلاً لأزمنة الاغتراب،"لقد شهدتْ الرواية العربية الجديدة مفهوماً جديداً هو (الشيئية)بتحويل ماهومتحرك وديناميي إلى شيء ثابت سكوني أيّ أنّها تحوّل المخلوقات الحية والمتحركة إلى موضوعات أو (أشياء) جامدة"(15)،كما رمزالخزان لصيرورة التغيب الفلسطينيّ،ومدّه بأبعاد مفعمة بالدلالات منها:الاسقاط،الفقدان والاستلاب الفلسطيني.

" اسمع يا أبا الخيزران..هذه اللعبة لاتعجبني !هل تستطيع أنْ تتصورذلك؟في مثل هذا الحر من يستطيع أنْ يجلس في خزان ماء مقفل؟... ستنزلون إلى الخزان قبل نقطة الحدود في صفوان بخمسين متراً،سأقف على الحدود أقل من خمس دقائق،بعد الحدود

بخمسين متراً ستصعدون إلى فوق..وفي المطلاع على حدود الكويت،ستكرر المسرحية لخمس دقائق أخرى،ثم هوب! ستجدون أنفسكم في الكويت! "ص54.

ويومىء أسلوب أبي الخيزران حينما طلب من مروان النزول في خزان بالسيارة، بالتهكم والسخرية (16) وساهم هذا التصوير في قلب المفارقة الدرامية،وكشف عن المكان البديل،"...**وفجأة قال مروان: . هل يوجد ماء في الخزان؟.**

انفجر أبو الخيزران ضاحكاً و ابتسم أسعد: . طبعاً لا..ماذا تعتقد؟ هل أنا مهرب أم معلم سباحة؟" ص 54 ومايليها.

ويصوّرالمشهد حال المتسللين أثناء عبورهم للحدود العراقية الكويتية،وهم تحت وهج الشمس،ونرى كيف تمّ رصد المكان (الخزان)،بوصفه قبراً متحركاً،وتأتي متوالية صورالخزان باعتبارها محاكاة ساخرة للمعاناة الفلسطينية،"**أطفأ أبو الخيزران المحرك بسرعة، وفتح الباب ثم قفز إلى الأرض..وأخذ يصيح: . لقد بدأ الجد..هيا.. سأفتح لكم باب الخزان..ها ها سيكون الطقس كالأخرة ،هناك في الداخل...أنصحكم أنْ تنزعوا قمصانكم ..الحر خانق ومخيف هنا وسوف تعرقون كأنّكم في المقلى ...بقي الجميع و اقفين على الأرض دون حراك ..." ص 66.**

كما نرى كيف تحولت رحلة لقمة العيش إلى موت فجائعي،وكيف استثمرالخزان كمرثية جنائزية،تكثف صيرورة التغريب والغبن والتشرد والعجز.وأعادتْ الرواية تصويرمصيرالأفراد،وجسدتْ صراعهم للظروف القاهرة، وجاءتْ شخصية الفلسطينيّ باعتبارها رمزاً للقربان،واندمجتْ بالتطهير.

" أوقف السيارة بعنف وتسلق فوق العجل إلى سطح الخزان ..وحين لامست كفاه السطح الحديدي أحس بهما تحترقان ولم يستطع أنْ يبقيهما هناك...حين ترك القرص لمح عقارب الساعة الملتفة على زنده :كانت تشير إلى الثانية عشرة إلا تسع دقائق....كان وجه أبي الخيزران مشدوداً إليها متشنجاً وشفته السفلى ترتجف باللهاث والرعب،سقطتْ نقطة عرق عن جبينه إلى سطح الخزان الحديدي وما لبثتْ أنْ جفتْ..وضع كفيه على ركبتيه وقوس ظهره المبتل حتى صار وجهه فوق الفوهة السوداء وصاح بصوت خشبي يابس: . أسعد!.."ص88،87.

ويصوّرالمشهد التالي تجرد أبي الخيزران من الأحاسيس،وانتقل السرد من بدء الاستهلال إلى نهاية واقعات جرائم اضطهاد وبغي الفلسطينيّ لأخيه على هذا النحو: " **انحنى أبو الخيزران وضع أذنه فوق الشعر الرمادي المبتل...كان الجسد بارداً وصامتاً.مد يده وتحسس طريقه إلى ركن الخزان،كان الجسد الآخر مازال متمسكاً بالعارضة الحديدية...**

قاد أبوالخيزران سيارته الكبيرة حين هبط الليل متجهاً إل خارج المدينة النائمة...انحرف بسيارته عن الطريق الأسفلت ومضى يتدرج في طريق رملي ...لقد قرقراره منذ الظهيرة على أنْ يدفنهم،واحداً واحداً في ثلاثة قبور....أماالآن فإنّه يحس بالتعب...لاطاقة له على العمل.. .قال في ذات نفسه أنّه لن يدفنهم، سيلقي بالأجساد الثلاثة في الصحراء ويكر عائداً إلى بيته" ص90،88.

ونرى هنا كيف تحوّل الجسد الفلسطينيّ إلى شخوص،تؤسس الوعي الجمعي.كما نرى كيف تخلص أبي جيزران من جثث المتسللين، بعد أنْ قام برميهم وسط القمامة،وجاء دمج الأمكنة المغلقة بالمفتوحة،بوصفه تغريبة فلسطينية،تصوّر انتقال الفلسطيني من مكان واسع إلى ضيق موبوء،"...**ومضى هو يفكر..لم يكن يفكربالمعنى الصحيح،كانت أشرطة من مشاهد مقطعة تمر في جبينه بلا أي**

توقف أو ترابط...هبت نسمة ريح فحملت إلى أنفه رائحة نتنة..قال في ذات نفسه:" هنا تكوّم البلدية القمامة"ثم فكر:"لوألقيت الأجساد هنا لاكتشفت في الصباح...دوّرمقود سيارته وتتبع آثارعجلات عديدة حفرت طريقها قبله في الرمل ...

وحين لاحتْ أمامه أكوام القمامة سوداء عالية أطفأ الفانوسين الصغيرين..." ص90،91.

ويتجه السرد نحوخاتمة تضيء البداية،تحاكي رمزية النفي الفلسطيني حيّاً كان أم ميتاً،**"وقف أبو الخيزران إلى جانب سيارته لحيظات ليتأكد من أنّ أحداً لا يشاهده ثم صعد ظهر الخزان...و انزلق إلى الداخل بخفة.. كانت الجثة الأولى باردة صلبة...وقذفها إلى فوق وسمع صوتها الكثيف...لقد لاقى صعوبة جمة في فك يديّ الجثة الأخرى عن العارضة الحديدية،ثم سحبها من رجلها إلى الفوهة وقذفها من فوق كتفيه...أما الجثة الثالثة فقد كانت أسهل من أختيها.." ص 91.**

ومن هنا نرى كيف لم يكتفِ غسان الإمساك بإشكالية الاغتراب في التاريخ الفلسطينيّ ،بل تتبع سيرة الشخصية،كمؤرخ عبر زمن التغريب،ورصد تدفق الوعي،الذي ارتكزعلى نواة شجرة الزيتون،فجاءت بوصفها ارتحال بين شمال الهجرة إلى موسم التغريب ومواسم النفي والإبادة.

المبحث الثاني: اللغة والأسلوبية (17)

إذا كانت اللغة عند بارتRoland Barthes خليطاً من الاعتقادات والأزياء والعادات والاتجاهات الاجتماعية والقناعات السائدة في محيط الكاتب،ونتج عن ذلك أنْ بدأ بارت Barthesعمله بأداة جديدة أو خلق لغة خاصة به أو استخدم مادة مؤلفة من "نظام المعاني" تتحكم إلى مدى بعيد في الإنتاج الأدبي" (18)

فإنّ لغة السردعند .غسان الكنفاني .تتحرك من الخاص إلى العام،توسمتْ بالاغتراب والارتحال تجاه التاريخ والأرض،فتفاعل المكان وتدفقتْ المشاعر،وتوالدتْ صور الغياب والحضور،الحلم والعدم ، الصحراء والنهر،الشمس والظلام.

بينما تمثلتْ . الأسلوبية ، بالتركيز على الظواهر اللغوية والبلاغية المختلفة مثل التكراروالاستفهام والتراكيب كاستخدام الأفعال بأنواعها،ووظيفتها،ودراسة هذه الظواهر داخل العمل الأدبي(19).

وبدأ السرد بالماضي البعيد(...) وانتقل إلى الحاضرالقريب،واستمرالزمن التاريخيّ محدداً بعشر سنوات، بل اتخذ من الاسترجاع حلقة انتقال مكاني،صوّرالحياة الشعبية ومفهوم الشعائرالدينية،ممّا حقق الهوية الفلسطينية،**"في تلك الليلة شاهد الأستاذ جالساً في ديوانية المختاريقرقربنرجيلته: كان قد أرسل لقريتهم في يافا كي يعلم الصبية،كان قد أمضى شطراً طويلاً من حياته في التعليم حتى صارت كلمة أستاذ جزءاً لايتجزأ من اسمه،في الديوانية سأله أحدهم،تلك الليلة:."..وسوف تؤم الناس يوم الجمعة..أليس كذلك؟**

وأجاب الأستاذ سليم ببساطة:."كلا،إنني أستاذ ولستُ إماماً.."

قال له المختار:." وما الفرق ؟لقد كان أستاذنا إماماً.."

."كان أستاذ كتّاب،و أنا أستاذ مدرسة.."

...هاهو إذن الشط الذي تحدث عنه الأستاذ سليم قبل عشر سنوات!ها هو ذا يرتمي على بعد آلاف من الأميال والأيام عن قريته وعن مدرسته" ص14،13.

عالج .غسان .أسباب الهجرة ودوافعها،ووقف عند حياة الابنيّن : زكريا ومروان وعائلتهما في المخيم،سرد صعوبة المعيشة بعد أنْ تخلى عليهم الوالد،وخاصة بعدما انقطعت مساعدة زكريا من الكويت،وكأنّ في هذا الحدث تكراراً وإلحاحاً و تواصلا وانقطاعاً للتاريخ،ممّا أسهم في تدوين مأساة فلسطين،**"منذ أن انقطعتْ عنا أخبار أخي زكريا اختلف الوضع نهائياً..كان زكريا يرسل لنا من الكويت،كل شهر حوالي مئتي روبية..كان هذا المبلغ يحقق لأبي بعض الاستقرار الذي يحلم به...**

زكريا راح ،زكريا ضاعت أخباره، من الذي سيطعم الأفواه؟ من الذي سيكمل تعليم مروان ويشري ملابس مي ويحمل خبزاً لرياض وسلمى وحسن؟ من؟إنّه رجل معدم...لقد كان طموحه كله ...هو أنْ يتحرك من بيت الطين الذي يشغله في المخيم منذ عشر سنوات ويسكن تحت سقف من أسمنت " ص 40.

وتؤسس تجربة غسان من مفرادت الحياة اليومية، فهي تصورالبيئة ومَن فيها،وجاء سرد موت أستاذ القرية سليم في تراكيب جمل بين الطويلة وأخرى مقتضبة،وحصرتْ بين القريب والبعيد (هذا،هناك،ها هو)،وهذه المقاربة تقوي الذاكرة،بل نرى كيف باتت ذاكرة الأموات تطارد الأحياء،" **هاهو ذا يرتمي على بعد آلاف من الأميال والأيّام عن قريته وعن مدرسة الأستاذ سليم...لاشك أنّك ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في أيدي اليهود...أتوجد ثمة نعمة إلهية أكبر من هذه؟ ...ولكنك على أي حال بقيت هناك..بقيت هناك!" ص 14. 15.**

اهتم المشهد التالي بتصويرمشاكل الفلسطيني،وكثرتْ علامات الاستفهام والإيقاع المتسارع،وانتقل حوار أبي الخيزران مع مروان إلى وعي الحاضر،" **وقف أبوالخيزران ثم رفع كفيه عن جيبه وثبتهما على خصربه وأخذ يحدق إليه ضاحكاً: .ها ! لقد فهمتْ الآن.. أخوك لم يعد يرسل إليكم نقوداً،أليس كذلك؟**

هز مروان رأسه وحاول أنْ يسير،إلا أنّ أبا الخيزران شده من ذراعه فأوقفه..

.لماذا؟ هل تزوج؟

حدق مروان إلى أبي الخيزران مشدوهاً ثم همس: .كيف عرفتْ؟

.ها،الأمر لايحتاج إلى ذكاء خارق،كلهم يكفون عن إرسال النقود إلى عائلاتهم حين يتزوجون أو يعشقون...

.لكن ..لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا يتنكرون لـ...

.أنا مبسوط أنّك ستذهب إلى الكويت لأنّك ستتعلم هناك أشياء عديدة.. أول شيء ستتعلمه هو أنّ: القرش يأتي أولاً،ثم الأخلاق" ص44.

و يحاول السرد أنْ يستحضر زمن السلام،وحميمية العلاقات،لذا،ربط أسعد صوت وليده،بأصوات البحارة وهدير نهر شط العرب،وكأنّه في ذلك دلالة إلى قرب ولادة جديدة للشعب الفلسطيني،كما رسمتْ ولادة طفل جديد،علاقة الأبوة الغامضة،ورمزتْ إلى

نهاية دورة تاريخية ،كما دمج السرد صورة الأرض والمرأة في موتيفية الشعائر والأساطير،وجاءتْ شعيرة الأرض التي تنتج الولادة الثانية بوصفها امرأة بشكل عام (20)،" **يا إلهي**"

. ماذا؟

."سألد"

."أأنادي شخصاً؟"

."أم عمر"

."أين أجدها الآن؟"

...." لاتتحركي كثيراً،دعيني أنادي أم عمر.."

." أسرع..أسرع..يارب الكون!"

هرول إلى الخارج ،وحين صفق وراءه الباب سمع صوت الوليد فعاد وألصق أذنه فوق خشب الباب..

صوت الشط يهدر،والبحارة يتصايحون،والسماء تتوهج والطائر الأسود مازال يحوّم على غير هدى. قام ونفض التراب عن ملابسه ووقف يحدق إلى النهر...وراء هذا الشط،وراءه فقط،توجد كل الأشياء التي حرمها " ص 18،17.

ويسلط حوارأسعد مع صديقه أبي قيس الضوء على حياة الفلسطيني،ويصورترغيب أسعد لأبي قيس بالهجرة.ونقل المشهد التقابلية بين الصوت الفلسطينيّ وصوت شجرات الزيتون،وتأتي الجمل الاعتراضية باعتبارها استهجاناً، وكشفاً للمونولوج الداخلي (21) وتأتي علامات النقط كدالة على الوقف أثناء الحديث **"أنّها مغامرة غير مأمونة العو اقب؟"**

...." أسمعتِ ما يقول زوجك؟غير مأمونة العو اقب!...لم ترفع بصرها إليه، وكأنه هو يرجو أنْ لا تفعل..

." أتعجبك هذه الحياة هنا؟ لقد مرت عشر سنوات و أنت تعيش كالشحاذ..حرام! ابنك قيس،متى سيعود للمدرسة؟ وغداً سوف يكبر الآخر..كيف ستنظر إليه و أنت لم..."

... زوجته مازالتْ صامتة وفكر هو:"وغداً سيكبر هو الآخر..."ولكنه قال :." الطريق طويلة،و أنا رجل عجوز ليس بوسعي أنْ أسير كما سرتم أنتم ...قد أموت.."...كف سعد عن الإلحاح ولكن الصوت الغليظ انفجر في رأسه هو:." تموت؟ هيه! من قال أنّ ذلك ليس أفضل من حياتك الآن؟ منذ عشر سنوات و أنت تأمل أنْ تعود إلى شجرات الزيتون العشر التي امتلكتها مرة في قريتك.. قريتك!هيه!" ص 19 . 20.

وجاء المشهد وهو يصف الكويت،صوّرأبعاد التحولات المكانية عبر تقنيتيّ: التأكيد والتذكر والتداعي، وظفت مستويات اللغة ،كإضاءة لفقدان المكان والإنسان،وجاءتْ البنيّة التصويرية،وهي تشكل وحده مترابطة من تاريخ الأشخاص وأشيائهم (22)،وجاء المَعول الكويتي بوصفه رفاتاً للزمن وشخَص الفلسطيني باعتباره بقايا للتاريخ، **" السيارة تمضي فوق الأرض الملتهبة،ويهدر محركها مثل فم جبار يزدرد الطريق .. الشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لهب أبيض،وشريط الغبار يعكس وهجاً يكاد يعمي العيون.. كانوا يقولون لهم إنّ فلاناً لم يعد من الكويت لأنّه مات،قتلته ضربة شمس،كان يغرس معوله في الأرض حين سقط فوقه**

وفوقها،وماذا ؟ ضربة شمس قتلته،تريدون أنْ تدفنوه هنا أوهناك؟...كأنّ هذا الخلاء عملاق خفي يجلد رؤوسهم بسياط من نار وقار مغلي...ولكن أيمكن للشمس أنْ تقتلهم وتقتل كلّ الزخم المطوي في صدروهم؟" ص 78.

ولقد رأينا كيف تعاملتْ مدام بوفاريBovary Madame مع الواقع المشوه في رواية "**البحث عن الزمن المفقود**"،وجاءتْ الرواية بوصفها تجربة خصوصية وعلاقات شخصية(23)،بينما أعاد غسان كنفانيّ ترتيب الذاكرة والمعرفة،وحركة التاريخ،ووظف أسلوب الإلتفات عبر تكرار حكاية صدى واقعة الخزان،وجدد هذا التكرارالوعي بالمفقود،ممّا أسهم في بناء البنيّة الزمنيّة العميقة،كما جسد انتشار صدى الاستفهام لماذا، لماذا،إذ عبرتْ عن " عدم القدرة على الفعل أو التفاعل مع العالم الخارجي" (24).

" قفزإلى الخارج وأغلق الفوهة ببطء،ثمّ هبط السلم إلى الأرض،كان الظلام كثيفاً مطبقاً وأحس بالارتياح لأنّ ذلك سوف يوفر عليه رؤية الوجوه،جر الجثث . واحدة واحدة . ...حيث ألقى بالجثث،إلا أنّه لم ير شيئاً...إلا بأنْ أوقدتْ الفكرة ضراماً فبدأتْ تشتعل في رأسه ...

."لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟..."

دارحول نفسه دورة ولكنه خشي أنْ يقع فصعد الدرحة إلى مقعده وأسند رأسه فوق المقود: . لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقولوا؟ لماذا وفجأة بدأتْ الصحراء كلها تردد الصدى:

. لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟لماذا؟ لماذا؟لماذا؟ "ص91ومايليها.

من هنا نرى كيف استطاع غسان بناء الصورة الاغترابية من خلال النقد،وجاءت المعالجة وهي تفحص سيرورة الحياة ومتغيراتها.كما استطاع كتابة التاريخ بالانتقال من التمثيل إلى بعث وتوثيق حقائق،وإعادة الصياغة بجمالية الأسلوب وذاكرة الكاتب.

النتائج:

. نلحظ تغير مفهوم . الاغتراب في البناء السردي ،، وظهرالوعي الاغترابي عبر تشظي الزمان والمكان، وتجسد من خلال الأفعال والأفكار والسلوك،حيث إنّ الراوية لم تقدم حكاية فرد،بل تاريخ ومصير شعب وماتعرض له من اضطهاد،وهذا مايجعلنا ننظرإلى الهوية الفلسطينية بوصفها هوية تاريخية جمالية.

. اعتمدتْ بنيّة اللغة الاغترابية على تفكيك البناء التاريخيّ،ثمّ تركيبه لولادة تاريخ جديد.كما بُني من صور الحاضر وذاكرة الماضي.وتداخلتْ الأصوات المفردة مع مظاهر الطبيعة.وتحولت واقعة نكبة 1948 إلى ذكرى مؤسّسة للتشرد، تفضح بشاعة الاحتلال الإسرائيليّ،وجرم تهجيره لشعب عن أرضه،والتمثيل بحقه أقصى المجازر..

. كما نرى كيف امتدتْ بيوت الطين وأشجار يافا في الذاكرة، فشكلتْ ملامح وهوية وحنيناً،وكرستْ وقائع سردية كإحالات اغترابية،أبرزتْ إشكالية الواقع السياسيّ والاجتماعيّ للقضية الفلسطينية.

أهم التوصيات والمناقشات :.

.أنّ رواية رجال في الشمس حولتْ نكبة 1948م إلى موتفية تغريبية فلسطينية،تفضح بشاعة الاحتلال الإسرائيليّ وجرم تهجيره لشعب أعزل.

.أنّ بروزالاغتراب في الشخصية والمكان،جاء بوصفه صراعاً للذات والآخر.

.أنّ استمرار الهوية الفلسطينية من الميلاد حتى الممات، شكل دورة انبعاث للتاريخ والجماعة،وسرد ذاكرة لاتموت.

.أنّ الوعي بالوقائع التاريخية الاجتماعية ،شكل مرجعية لمأساة المعاناة والتهجيروالنفي للشعب الفلسطينيّ.

.أنّ جدلية التاريخ وتحولاته الإيديولوجية،نسج صور فنية لمابعد الكولونيالية.

الهوامش:

1. مختار ملاس: تجربة الزمن في الرواية العربية،رجال في الشمس نموذجاً،جزائر،دار موفم للنشر،2007م.

. جاءت رواية "رجال في الشمس"،التي تدور أحداثها حول ثلاثة رجال من مخيم فلسطيني،هاجروا من قرية بيافا بعد نكبة 1948م، ونتيجة لتردي الأوضاع المعيشة، قرروا العمل بالكويت،وكانت الرواية أكثر تشخيصاً للواقع ،كشفتْ عن أمكنة حقيقية وأخرى متخيلة عبر تسلل الصحراء،ووظف غسان المكان والذاكرة والتاريخ في السرد،وانتهتْ الرواية بموت الرجال الثلاثة.

وهم في خزان داخل سيارة مُهرب عبر الحدود،وهم يعانون وهج الشمس.وكانت أول رواية عالجتْ أحداث نكبة الشعب الفلسطينيّ 1948م،وصدرت عام 1963م في بيروت، ومثلت فيلماً سينمائياً عام 1973م في مهرجان قرطاج،وصنف في عداد 100فيلم سياسي في تاريخ السينما العالمية،الطبعة الثانية صدرت سنة 1980م، دار البيضاء.

.غسان كنفاني : رجال في الشمس،الدار البيضاء،المركز الثقافي العربيّ، 1980م، ط2.

.غسان كنفاني ولد بمدينة عكا في التاسع من نيسان 1946م،وشهد سقوطها وهو في سن الثانية عشرة، خرجتْ أسرته كما خرجتْ الأسر الفلسطينية من أرض الوطن.في التاسع من نيسان يوم ميلاده سنة 1948م وقعتْ مذبحة دير ياسين وانتقاله إلى المنفى،إلى دمشق،ونال شهادة الثانوية بتفوّق في الأدب العربيّ ،أصبح مدرساً للرسم في مدرسة اللاّجين سنة 1954م،ثم سافر إلى الكويت بدأ في نشر بعض تعليقاته السياسية في الصحف الكويتية باسم (أبوالعزّ).

اشتغل بالصحافة ،كما أصبح الناطق الرسميّ باسم الحركات الثورية في العالم حتى كان يوم استشهاده في الثامن من يوليو 1972م،مات غسان وخلف ثلاثيته الرائعة "رجال تحت الشمس،ما تبقى لكم،أم سعد"، تمثل رجال تحت الشمس جزءاً من التشكيل العام للمسار البنيويّ والدلائلي لهذه الثلاثية.

2.انظر:محمد إمحمد الطوير: تاريخ حركات التحرر في العالم،ليبيا،منشورات الزاوية،2002م،ط1،ص 139.

تمّ إعلان قيام دولة إسرائيل سنة 1948م،على أرض لم تكن يهودية، حيث قامت بنشر الرعب بين العرب في فلسطين،وذلك بإرتكاب المجازر الوحشية،كما حدث في قرية "دير ياسين"،و"كفر قاسم"، وهي كانت سبب في هجرة السكان العرب إلى المخيمات بنيتْ لهم خصيصاً من الأقطار العربية.،وهي تمثل المأساة والجريمة الصهيونية.

3. انظر:مريم جبر فرحات:الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني،مجلة جامعة دمشق،العدد الثالث والرابع 2010م، المجلد 26، ص 328.

4 . انظر:عبد الرحمن ياغي: مع غسان كنفانيّ، الكويت،مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، 1983م،ص 94.

5. انظر:بول ريكور:الزمان والسرد المروي،ترجمة:سعيد الغانميّ،مراجعة:جورج زيناتي،بيروت،دار الكتاب الجديد المتحدة، ،2006م، ط1، الجزء الثالث،ص 370 ومايليها.

6 . انظر:بول ريكور: الذاكرة،التاريخ،النسيان،ترجمة وتقديم وتعليق، جورج زيناني، بيروت،دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ،2009م، ط1،ص83

7. انظر: عبد الرحيم الإدريسيّ: استبداد الصورة،شاعرية الرواية العربية،بيروت،الانتشار العربي،2013م،ط1،ص35.

8 . انظر:ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه،ترجمة: إحسان عباس،محمد نجم،بيروت،دار الثقافة ،2981م، ط1،ص251.

9 . انظر:جمال حمدان :وحدة الرافدين والنيل،دراسة في استراتيجية العراق،مجلة الفكر المعاصر،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد،12، فبراير 1966 ،ص39،38.

شط العرب :هوالمثلث السهلي على رأس الخليج العربي الذي هو التتمة الطبيعية والاستمرار المباشر لسهل الرافدين،وهو النافذة الطبيعية للعراق على الخليج العربي.

وانظر: ويكيبيديا

Ar.m.wikipedia.org/wiki

شط العرب هو نهرعراقي يتكون من إلتقاء نهري دجلة والفرات،حيث يلتقي النهران في منطقة (كرمة علي) المدخل الشمالي لمدينة البصرة،ويصب في الخليج العربي.

10. انظر: سمير الحاج شاهين:لحظة الأبدية،دراسة الزمان في أدب القرن العشرين،بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980م،ص59.

11 . انظر: نور ثروب فراي: تشريح النقد، ترجمة: محيي الدين صبحي، طرابلس، الدار العربية للكتاب،1991م،ط1،ص 280.

12 . انظر: بول ريكور:الذاكرة،التاريخ،النسيان،مرجع سابق،ص 659.

13. انظر: إلياس الخوري: الذاكرة المفقودة، بيروت،دارالآداب، 1990م،ط3،ص80.

14 . ويكيبيديا

Ar.m.wikipedia.org/wiki

المطلاع هي: سلسلة من المرتفعات التي تعتبر مدخل إلى الجهراء غرب الكويت، وتبعد عن العاصمة 40 كيلومترا.

سفوان أو صفوان،مدينة عراقية،تقع في أقصى جنوب العراق قرب الحدود العراقية.الكويتية.يقابلها في الجانب الكويتي منفذ العبدلي الحدودي.

15 . طاهرعبد مسلم:عبقرية الصورة والمكان،التعبير. التأويل . النقد،الأردن، دار الشروق للنشروالتوزيع،2000م،ط1،ص 120.

16 . انظر: نور ثروب فراي، مرجع سابق،ص 65.

السخرية تحمل معاني أبعد،وخاصة حين تستعمل كمصطلح أدبي،وعند الأغريق تعني التمويه، وعند سقراط تعني إبداء الجهل لتوريط المحاور،وفي البلاغة الكلاسيكية هي سخرية لفظية،أما في المسرح فهي سخرية الأقدار.

17 . انظر: خليل إبراهيم:النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، الأردن، دار المسيرة، 2003، ط1، ص 149.

مصطلح الأسلوبية وافد من الغرب،وهو الترجمة الحرفية للمصطلح الإنجليزي ،غير أنّ جذوره ضاربة منذ القدم وقد يظن كثير من الناس أنّ الأسلوبية شيء جديد وانقلابي وثوري وهذا محض ظن ولايقترب إلا قليلا من الواقع، فمنذ القدم تحدث أرسطو في كتاب الخطابة عن الأسلوب وفرق بين الأسلوب الجميل والأسلوب القبيح.

18. محيي الدين صبحي:النقد الأدبي الحديث بين الأسطورة والعلم، ليبيا، الدار العربية للكتاب،1988م، ص 79.

19. انظر: نور ثروب فراي،مرجع سابق،ص 286.

20 . انظر:عودة الخليل: المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي،فلسطين،مجلة النجاح للأبحاث، مجلد 2،عدد 1994،8م، ص100.

21 . انظر:نور ثروب فراي،مرجع سابق،ص 264.

و انظر:عزة عبد اللطيف عامر: الراوي وتقنيات القص الفني،دراسة تطبيقية على نماذج من الراوية المصرية، 1933 . 1997،ط1،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،2010م،ط2،ص176.

المونولوج الداخلي:هوحديث الشخصية لنفسها،وهي أداة تستخدمها الرواية والقصة القصيرة ،أكثر من استخدام المسرحية لها.

22 . ميشال بوتور: بحوث في الراوية الجديدة،ترجمة: فريد أنطونيوس،بيروت،منشورات عويدات،1988، ط2 ص 55.

23 . انظر:إيان واط: نشوء الراوية،ترجمة:ثائر ديب،القاهرة،دارشرقيات للنشر والتوزيع،1997م، ط1،ص 177.

24. سيزا قاسم: بناء الراوية،القاهرة، الهيئة العامة للكتاب،1984م،ص 77.